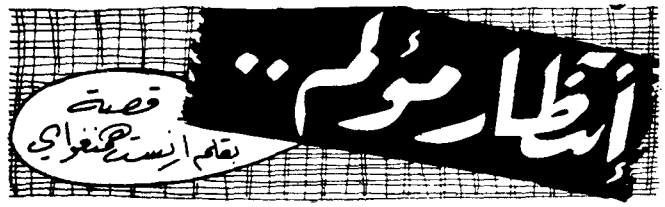

لقد كان يتعثر في سيره اذ دخل الغرفة ليغلق النوافذ حين كنت مستلقيا على سريري في الصباح ، وكانت اطرافه ترتعش ووجهه شديد الشحوب فسألته « ماذا بك يا ولدي العزيز ؟ » فأجاب « انني اشعر بصداع شديد » فقلت له « من الاحسن ان ترجع الى فراشك » فأجاب « لا أظن انني بحاجة إلى ذلك » .

وحينما ارتديت ثيابي ونزلت الى الطابق الاسفل وجدته جالسا بقرب النار وكل امارات المرض والحزن ظاهرة على جسمه ذي التسع سنوات. ولما لمست جبهته وجدته محموما ، فقلت له « ارجع يا عزيزي الى فراشك لان بقاءك هنا قد يؤذيك » فأجاب « انني مستريح هنا امام الموقد » ولما لم اجد شيئا اقوله له طلبت الطبيب بالهاتف . وبعد ان فحص الغلام وقاس درجة حرارته سألته عن مدى ارتفاعها فأجاب بأنها مائة واثنتان ، ولهذا فلا موجب للقلق ، ثم ترك ثلاثة عقاقير : واحدا للتقوية ، واخر لتخفيض الحرارة والثالث خاص بمعالجة الامعاء . وافاد بأن الغلام مصاب بالانفلونزا ولا خطر يخشى عليه منها ، هذا اذا لم ترتفع درجة حرارته اكثر مما هي عليه ، ولم يحصل مضاعفات تؤذي رئتيه .

وبعد ان غادرنا الطبيب دونت ملاحظاته على ورقة مع اوقات اعطاء العلاج ، ثم سألت الغلام عما اذا كان يريدني ان اقرأ له ، فأجابني بالايجاب وقد ازداد شحوب وجهه واحيطت عيناه بدائرة دكناء وكأنه جسد مسجى ، فهالني منظره . واخذت اشاغل نفسي بالقراءة له من كتاب القرصان . ولكنه كان يشاغل عني ، ولما ازداد اضطرابي سألته « ماذا تشعر يا عزيزي ؟ » فقال « لا يوجد في ادنى تغيير » فازداد اضطرابي اكثر واخذت اخالسه النظر منتظرا الوقت المحدد لاعطاء العلاج . وكان من المنتظر ان يستغرق في النوم ، ولكن منظره كان كمن يغالب النوم ، لان نظره لم يفارق طرف السرير . وحينئذ سألته « لماذا لا تدع نفسك تنام وتترك العلاج يأخذ مفعوله ؟ » فأجاب « ان من الاحسن ان ابقى مستيقظا » ثم اردف قائلا « لا تزعج نفسك يا ابي في البقاء بجانبي ، انني احبذ ان ابقى وحدي » .

فقلت لنفسي بأن هذا من تأثير الحمى عليه . وبعد ان اعطيته العلاج غادرت الغرفة ظنا مني بأنه سوف ينام .

وكان ذلك النهار باردا جدا لان الصقيع كان كاسيا وجه البسيطة بأكملها ، مما جعل السير صعبا ، ومع هذا فقد تناولت بندقية الصيد ، وسرت بصعوبة كلية ، بينما انزلق كلبي مرتين وقد سقطت انا بدوري وافلتت مني بندقيتي ، فاستردتها بكل صعوبة وعاودت سيري. وقد صادفت سربا من العصافير فاصطدت اثنين ، وقد سررت بهما ظنا مني بأن طفلي سيفرح بهما ايضا .

وحينما دخلت المنزل اخبروني بأن الغلام لم يسمح لاحد بالدخول عليه، فذهبت توا اليه فوجدته على الوضع الذي تركته فيه ما عدا بعض بقع حمراء ظهرت على اعلى وجنتيه ، ونظره على طرف السرير لم يتغير وضعه. فازداد قلقي وقست درجة حرارته ولما وجدتها قريبة من المائة هدأت افكاري ولكنه سألني « وهل ارتفعت حرارتي ؟ » فقلت له ، « بل بالعكس فقد هبطت فلا داعي للتفكير فيها » فقال بصوت مضطرب « انني احاول الا افكر فيها بكل قواي » وكان كأنه يخفي شيئا هاما في نفسه .

وبعد ذلك فانني اخذت الكتاب وبدأت اقرأ له فيه ، وما ان سرت فيه شوطا ، حتى سألني بصوت ثابت « وفي اي وقت تظن انني سأغادر الحياة ؟ » فقفزت من مقعدي وكأنني لدغت وقلت له « ماذا تقول ؟ » فأجاب « هل سأنتظر طويلا لافارق الحياة ؟ » فقلت له وانا شديد الانفعال « ولكنك لن تموت ، ولا داعي للظن بأنك ستموت ، لان مرضك بسيط ويحتاج الى راحة ومعالجة مناسبة ، ولكن ما الذي اوحى اليك بهذه الفكرة المقلقة ؟ » فقال « لقد سمعت الطبيب وهو يقول بأن درجة حرارتي مائة واثنتان ، وقد تعلمت في المدرسة بأنه لا يمكن للانسان ان يعيش حينما تصل درجة حرارته الى الاربعة والاربعين ، فكيف بها وقد وصلت الى المائة ودرجتين ؟ »

لقد كان المسكين منتظرا للموت طيلة النهار منذ وصول الطبيب وقياسه درجة حرارته . فقلت له « انت ايها الطفل المسكين ، الا تعرف الفارق بين الاميال والكيلومترات ؟ انها كالفارق بين مقياس الفرانهيت ومقياس السنتغراد . انك يا ولدي لن تموت الان ، لان وضعك طبيعي جدا فالدرجة الطبيعية في ميزان الفرانهيت هي ٩٨ والدرجة الطبيعية في ميزان السنتغراد هي ٣٧ . والان فهل ادركت الحقيقة ؟

فصاح الغلام وكأنه فك من عقاله « وهل انت متأكد من ذلك ؟ » فأجبته ودموعي تكاد تنهمر « بدون ادنى شك ايها الطفل العزيز فهي كالاميال والكيلومترات تماما . انت تعرف ذلك جيدا . فكم كيلومترا نقدر ان نقطع اذا سرنا بالعربة ٧٠ ميلا ؟ »

فلم يجب المسكين بحرف لان التوتر كان قد زال عنه وران عليه نوم عميق اتصل طيلة الليل وقسما من النهار . وحينما استيقظ كانت حرارته طبيعية ، ولكنه كان سريع الانفعال ودموعه تنهمر لاقل الاسباب .

ترجمة اميرة توفيق الجمال